كتاب في سير الملوك

الباب الأول: في أخبار الملوك المتقدمين.

الباب الثاني: في سياسة الملوك للرعية.

الباب الثالث: في بيان آداب الجلوس.

الباب الرابع: في الحُجَّاب.

الباب الخامس: في إرسال الرسل.

الباب السادس: في تولية العمال.

obeikandl.com

الباب الأول

في أخبار الملوك المتقدمين

أول ملك ساس الرعية في الأرض من أولاد آدم وحواء صلوات اللّه عليهما يسمى حضرموت ملك أربعين سنة، وقال يوم ملك: إن البر زين الأعمال، وإن البر للشكر. ثم ملك ابن لآدم يسمى أوشهنج ملك أربعين سنة، وقال يوم ملك: إنا ملوك على الأنس والجن بإذن اللّه بديع الخلق أمر بقتل السباع الضارية، ثم ملك طمهورث، وقال: نحن فادعون[1] بعون اللّه عن خليقته الشياطين المردة ملك ثلاثين سنة، ثم ملك حام بن وبريجهان، فقال: إن اللّه أكمل بهاءنا وأحسن تأييدنا وسنوسع على رعيتنا خيرا، وتوارى ستمائة سنة، وأمر بصنعة السيوف والدروع وبغزل الإبريسم، وإسراج الخيل، وحارب الشياطين والجن فانقادوا له، وأخذ الأقاليم السبعة ثم ملك هرمز بن درزفرورد بن ماه فسمى الناس ذلك اليوم نوروزا وتأويله اليوم الجديد، وأنه بطر وطغى وادعى الألوهية لنفسه فأهلكه اللّه، ثم ملك بنوراسب ذو الأفواه الثلاثة والأعين الثلاثة فهي ست الداهي الساحر الأثيم جميع الأقاليم، وقال: نحن ملوك الدنيا، فتوجه إليه أفريدون إلى جبل دناوند وشده هناك وثاقا، وأمر الناس باتخاذ مهر ماه مهرور هنالك - وهو المهرجان اليوم الذي أوثق بنوراسب فيه جعله عيدا - ثم ملك أفريدون فملك الأقاليم السبعة وقال: نحن القاهرون بأيد اللّه وإن إبراهيم خليل اللّه ولد سنة ثلاثين من ملك أفريدون، وهو أول من عَبَّدَ الفيلة وذللها وامتطاها، وعالج الترياق، وقسم أقاليم الأرض ثلاثة أقسام بين ثلاثة بنين: سلم وطوخ وأيرخ ثم ملك فراسياب التركي اثنتي عشرة سنة، وأهجر يوم ملك باغيا فقال: نحن ساعون في إهلاك البرية سعيا، واستعان بالسراق والقطاع والقتال، وأقحط الناس في ملكه، فغارت المياه

---

(١) فادعون: أي دافعونهم، من الفَدَع وهو في الأصل: ارتفاع أخمص القدم حتى لو وطئ الأفدع عصفورًا ما آذاه، ففي الكلام تشبيه. انظر "القاموس".

وهاجت الأعشاب، ثم ملك وأب بن طهاسب ثلاث سنين وقال: نحن معمرون بعون اللّه، ثم ملك قياد الجبار مائة وقال: نحن مدوخون لبلاد الترك، وجاذبون على بلاد الفرس، ثم ملك قابوس وبنى مدينة من صُفْر[1] ملك مائة سنة، ثم ملك هراسب الجبار وقال غني البر أبقي للغني ثم مثل ملك كسرى الجبار، ثم قال: نحن القائلون فراسات واتخذ سريرا من ذهب، وبنى مدينة بلخ، وسماها بلخ الحسناء، وإنه دوّن الدواوين وأخرب بيت المقدس، ملك مائة سنة، ثم ملك بستاسب، وقال يوم ملك: نحن صارفون فكرنا، وبني مدينة نسا ورفع بيوت النيران ببلاد الهند، ثم ملك بهمن وهو أزدشير أسفنديار، وقال يوم ملك: نحن محافظون على الوفاء، ثم ملكت خماني بنت أزدشير وقالت: إن اللّه خلقنا لنعبده، وألهمنا الرأفة برعيتنا، وبنت بفارس إصطخر، وغزت أرض الروم، وملكت ثلاثين سنة، ثم ملك أخو هادر بن أزدشير اثنتى عشر سنة ثم ملك دارا بن دارا، وقال يوم ملك: لن ندفع أحدا في مهوى التهلكة، ومن تردى فيه لم نكففه عنه، وإن فيلسوف أبا الإسكندر اليوناني من بلد المقدونية، كان ملكاً عليها وعلى بلاد أخرى، وإنه كان صَالَحَ دارا هذا على خراج، فكان يحمله إليه في كل عام فهلك وتولى ابنه إسكندر المملكة، فلم يحمل إلى دارا الخراج فبعث إليه بصولجان وكرة وقفيز من سمسم، وأعلمه أنه صبي ينبغي أن يلعب بالصولجان والكرة، وأنه إذا استعصى عليه بعث إليه جنودا بعدد السمسم، فكتب إليه إسكندر تفاءلت بالصولجان والكرة لإلقاء الملقى الصولجان إلى الكرة واحترازه إياها، وبعث إليه بقفيز من خردل يعني أن جنوده مثله، وأمر الإسكندر فبنيت له اثنتا عشرة مدينة سمى كل واحدة إسكندرية بأصبهان مدينة هي المبنية على مثال جُنْدَ وبخراسان ثلاث مدائن: هراة ومرو وسمرقند، ومدينة عظيمة بأرض مصر وإسكندرية، ومات ببابل وملك أربع عشرة سنة، وإن جثته طليت عسلا لئلا تصدأ وتنتن، ووضعت في تابوت من ذهب، وحملت إلى الإسكندرية إحدى المدائن التي بناها بأرض اليونانيين، ثم ملك أسد

---

(١) الصُفْر: النحاس.

ابن أشغان عشر سنين وقال: نتوب إلى اللّه من سوء فكرنا وسوء قولنا وسوء فعلنا، وفي ملكه ظهر عيسى المسيح بأرض فلسطين ونسف بيت المقدس حتى لم يترك فيه حجرا على حجر، ثم ملك جودر بن شغابان، ثم ملك هرمز الأشغاني سبع عشرة سنة وقال: يا معشر الناس اجتنبوا السيئات فتعدموا الخوف، ثم ملك أزدوان اثنتى عشرة سنة وقال: نحن طالبون الذكر بالنجدة، ثم ملك كسرى الأشغاني، ثم ملك بلاش الأشغاني، وقال: يا معشر الناس الزموا الطاعة لئلا تحتاجوا إلى الإدلاء بالحجج، ثم ملك أزدشير بن بابل وقال: نحن مدخرون كنوز البر كيلا يستطيع أحد أن يسلبناها، وكان من كورة إصطخر من مدينة بيرود وبابل، أبوه ساسان بن كيرش الجبار بن أفنة الجبار بن فنادا الجبار بن قابوس، وساسان قَيِّم بيت نار إصطخر، وفي ملك سابور شهر الكذاب الضال المضل بابا الزنديق، وملك إحدى وثلاثين سنة، ثم هرمز بن سابور، ثم بهرام بن هرمز وقال: نحن مدّخرون الآمال للعائدة على رعيتنا، والكذاب الزنديق أتاه ليدعوه إلى الزندقة فاستبرأ من أفاعيله، فوجده داعيةَ الشيطان؛ فأمر بسلخ جلده وحشاه تبنا وأمر بقتل أصحابه، ثم بهرام بن بهرام وقال: إن يساعدنا الدهر نقبل ذلك بالشكر، وإن يخالفنا نرض منه بالقسم، ثم ملك نرسي سبع سنين، ثم ملك هرمز بن نرسي سبع سنين وقال: يا معشر الناس اقتلوا بغيتكم تسلموا من الأسر والحبس، وإن هرمز هلك وأم سابور حامل فعقدوا التاج على بطنها فولدت سابور ذا الأكتاف، فطغت العرب وأغارت، فلما أتت عليه ست عشرة سنة انتخب ألف فارس وقتل العرب أبرح قتل، وأسر وأعنف الأسر ولم يمر بماء من مياه العرب إلا غَوَّره، ولا بجُبٍّ من جبابهم إلا طمه، وبنى أنبار وكرخ، وغزا أرض الروم فسبى سبيا كثيرا، وبنى نيسابور وملك اثنتين وسبعين سنة، ثم ملك أزدشير الصغير أربعين سنة، ثم ملك سابور بن سابور خمس سنين، ثم ملك بهرام وقال يوم ملك: نحن على ذوي المسكنة عاطفون، وللمظلومين منصفون، وكتب إلى الملوك: إن اللّه إنما وضع الملك في الأرض ليدل على ملكه لا ليُشْبِهه عظما، ويقام به القسط ويسار فيه بالعدل، فمن آثر من الملوك رضا اللّه يبلغه اللّه ما أفضى إليه من الملك، وفاز

بالخير في معاشه ومعاده، ونال السعادة والغبطة، ومن آثر منهم محبة نفسه وهواه فيما خالف رضا اللّه في مصلحة عباده ألصق اللّه به الشقاء، وأعقبه عن عزه ذلا، وتخلى عنه، ووكله إلى نفسه، وبقي بخذلان اللّه، ولمن ابتلى به وسوء المصير، ثم ملك يزدجرد بن سابور الذي ينزه الأثيم، وقال يوم ملك: إنا لا نناظر أحدا ولا نحتمل ثقل أحد، ملك إحدى وعشرين سنة، وكان بجارجان فرأى على باب داره فرسا كَأفْرَهِ ما يكون من الخيل ولم يمكن أحدا سراجه وإلجامه، فجاء ليسرجه فرمحه على فؤاده فهلك مكانه، ثم ملك بهرام بن يزدجرد لقبه جور هرم خاقان قال: وأغار على أرضه، وملك ثماني عشرة سنة، ثم ملك يزدجرد بن بهرام وملك سبع عشرة سنة، ثم ملك فيروز بن بلاش بن فيروز أربع سنين ثم قباذ بن فيروز وقال: إنا قد سهلنا لكل السبيل إلينا، ثم ملك هرمز فقال يوم ملك: نحن جانون على الناس وحامون سفلتهم، فخلع وسمل وملك اثنتي عشرة سنة، ثم ملك كسرى بن هرمز وقال: إن من ملتنا إيثار البر، ومن رأينا العمل بالخير، ومسالمة الكل، واللّه أعلم.

الباب الثاني

في سياسة الملوك للرعية

فليكن الملك لرعيته بمنزلة الوالد المشفق لأولاده، فإن حدث من الرعية حادثة فليتداركها بلطفه وتدبيره لئلا يتسع الخرق على الراقع، وإن أصابهم خلل في أمر المعيشة من الطعام والشراب والكسوة والدواب أو في الذهب والفضة أو في المقام فليوسع عليهم ويلم الشعث الحادث بهم. قرأت في سير السلطان الغازي محمود بن سبكتكين - رحمة اللّه عليه - وقد أجدبت رعيته وكان له طعام - فقال بعض وزرائه: نبيع منهم بثمن عدل فقال: لا بل نوسع ونتصدق عليهم، فإنهم رعيتنا ولا نأخذ شيئا، فلا يحسن منا أن نكون في الرخاء ورعيتنا في الشدة والغلاء ثم أمر حتى أفيض عليهم.

فإن ضاقت البلدة بالرعية وشق عليهم المقام لازدحامهم فليزد في البلد، فإن لم يمكن فلينقل البلدة إلى بلد، ويأمر الملك رعيته بالزراعة والعمارة وينهاهم عن استنفاد الذهب والفضة في الأواني والأطواق واللُّجُم والمناطق[1] لئلا يضيق عليهم أمر المعاش فيه. قيل: إن الذهب إنما ينفد من أيدي الناس؛ لأن الملوك في هذا الزمان يستعملونه في الأشياء المستغنية عنه، والملوك المتقدمة لم يفعلوا شيئا من ذلك فكثر في أيامهم، والرعية على خمس طبقات فينزل الملك كل طبقة في موضعها حتى ينتظم أمر مملكته، فمن أنزل الناس منازلهم أمن غوائلهم وقد ذكرنا في كتاب أسرار الوزارة من هذه الكتب: أن اختلال أمر المملكة وزوال الدول من اصطناع السفل، وتضييع أهل الشرف والحسب، فالطبقة الأولى خواص الملك، والطبقة الثانية أجنحة الملك وقوادمه، والطبقة الثالثة المحترفة، والطبقة الرابعة أصحاب العاهات العجزة، والطبقة الخامسة البطلة الفسقة الفجرة، أما الطبقة الأولى فخواص الملك وهم خمس نفر: الوزراء والكتاب والعارضون وصاحب البريد والحجاب، وأحق الناس بإنعام الملك الحجاب والوزراء؛ لأن الوزير نائب الملك، ثم الكتاب لأنهم يعرفون أسرار الملك، ثم العارضون لأنهم حفاظ العسكر ثم صاحب البريد لأنه بمنزلة سمع الملك، ثم الحاجب وهو وجه الملك، فالوزير نائب الملك يحفظ دينه وماله وخزائنه وأمر مملكته، ويقاسي من البلاء ما لا يقاسيه الملك، فيستحق الاختصاص والمراتب، والكاتب يحفظ سرّه وخزائنه وأمور مملكته، والعارض يعرف مراتب الرجال وأحوالهم، وصاحب البريد يطلعه على مصالح المملكة ومفاسدها، وقيل: إن المأمون الخليفة رتب لصاحب البريد أربعة آلاف جمل مع مؤنتها وآلاتها يستخبرون عليها أمور المملكة، فكان يعرف أمور العالم في يوم واحد، والحاجب جناح الملك بل وجهه يدخل ويخرج ويولي ويعزل ويكتب وينسخ فيستحق الإنعام. الطبقة الثانية العسكر فإنهم جناح الملك وقوادمه فيشرف على كل خميس منهم أميرا يطيعونه فيما

---

(١) المناطق: جمع (نطاق)، وهو ما يشد على الوسط.

يأمرهم، ويعرف ظواهرهم وبواطنهم، ومصالحهم من مفاسدهم، وليطلق لعسكره الكفاية. الطبقة الثالثة المحترفة يأمرهم بلزوم الحرفة والمبالغة فيها؛ لأن الناس في البلد بمنزلة الأعضاء على البدن، فإذا نقص عضو نقص البدن، كذلك إذا نقصت حرفة في البلد تداعى الخلل في البلد، فإن أراد الوزير اجتماع المحترفة في المملكة فالحيلة أن يسابقهم بالعطية والنظر والمسامحة حتى يتسابقوا إلى الحرف في البلد. الطبقة الرابعة أصحاب العاهات - أعاذ الله الصدر العالي منها - كالعميان والزَّمْنَى والمجذومين والمخنثين فليتلطف الملك ويرفق بهم فإنهم أهل البلاء ومنادي الشرع يقول: «إذا رأيتم أهل البلاء فسلوا الله العافية»، فيجري عليهم قدر كفايتهم وليعين لهم موضعا على طرف البلد، ويجب على الملك والوزير أن يعقد الغيار على كل ذمي ونصراني ويميزهم عن المسلمين في مملكته؛ لئلا يختلطوا بالمسلمين، فإن تسامح بذلك إما لمصانعة يأخذها منهم أو يتغافل عن ذلك فقد داهن في دين الله وباء بسخط من الله. الطبقة الخامسة البطلة الفسقة الغوغاء فلا يرحمهم الملك لأنهم يغلون الطعام ويضيقون الطرق، فهم أظلم الناس، يأكلون رزق الله ولا يَعْلَمون الله[1] فلا يصلحون للدنيا ولا للآخرة، فكل أحد يعمل لنفسه وهم لا ينظرون لأنفسهم فيخرجهم من البلدان - رأى المصلحة - أو يترفق بهم لنائبة أو حادثة.

---

(١) أي: لا يعرفون الله، فلفظ (يعرفون) أولى لأن "يعلم" من لوازمها أن يسبقها الجهل، ولذلك فإننا نقول: علم الله كذا، ولا نقول: عرف كذا، والأمر هنا على خلافه. ولعلها (يعملون لله) بتقديم الميم، أي: لا يفعلون شيئا لآخرتهم.

الباب الثالث

في بيان آداب الجلوس

ينبغي للملك أن ينظر إلى الرعية بعين الرعاية والإكرام وينزلهم منزلة الأولاد والإخوان، فإن الفرس كان من عاداتهم أن ينزلوا الرعية منزلة العبيد لا يرعون لهم حرمة، ولا يحفظون لهم ذمة، فعاب عليهم الحكماء، وكتبوا إلى إسكندر: ينبغي لك أن تنظر إلى رعيتك بالعين التي تنظر بها إلى أولادك وإخوانك، فأن تكون ملك الأحرار والأشراف خير لك من أن تكون ملك العبيد والأوغاد، فاستحسن ذلك منهم، وليعلم الملك أن الحديث عقل الملك ورسوله، فإن سُمِعَ منه كلام قبيح يُستدل به على عقل الملك فالحديث ذكر لا يغلبه إلا الذكور، ولا يبدأ بالكلام الركيك فتسقط حشمته، ولا يأذن للناس كل يوم فيسقط وقاره، ولا يحتجب عن الناس مدة فينسوه، ولا يتباسط مع الناس فيتجرؤا عليه، وينزل الناس منازلهم، فيأذن للعلماء أولا ثم للزهاد والصوفية، ويزع إلى غلمانه وخدمه بحفظ الأدب والسكينة، ولا يمكن أحدا يقوم على رأسه بالسيف المسلول فإنه خطر عظيم ويحتاط في إدخال الرسل عليه، ولا يأذن للعاق أن يدخل عليه، واللّه تعالى أعلم.

الباب الرابع

في الحجاب

قد ذكرت أن الملك إذا احتجب مدة تنساه الرعية فليبرز أحيانا حتى يستعظموه، فاللبيب في العريش غير مهوب، وحاجب الرجل حارس عقله وعرضه. وقال بعض الملوك لحاجبه: إنك عين أنظر بها وجنة أستنيم إليها فعليك بالناس، فليكن الحاجب حسن الوجه كامل العقل حسن الخلق لئلا ينفر عنه الناس، ويعرف مراتب الناس حتى ينزلهم منازلهم، ولا يقدم من يستحق التأخير

فيستوحش منه الناس. قال خالد بن عبد الله لحاجبه: لا تحجب عني أحدا إذا أخذت مجلسي فإن الوالي لا يحتجب إلا عن ثلاث: بخل يكره أن يُطَّلَعَ منه عليه، أو ريبة يخاف أن يطلع عليها، وعَيٌّ يخاف أن يظهر منه، وقدم رجل على بعض ملوك العجم فأقام ببابه شهرا، فكتب إليه كتابا في أربعة أسطر في السطر الأول: الضرورة والأمل أقدماني عليك، وفي السطر الثاني: إذا لم يكن لي قدرة لم أقدر على المقام، وفي السطر الثالث: شماتة الأعداء لا تدعني أرجع من حيث جئت، وفي السطر الرابع: فإما نعم مثمرة وإما آمال مريحة، فأنجح طلبته، وأنشد في الحجاب:

سأترك هذا الباب ما دام أهله ... على ما أرى حتى يلين قليلا
إذا لم نجد للأذن عندك موضعا ... وجدنا إلى ترك السلام سبيلا[١]

كتب أبو العتاهية:

لئن عدت بعد اليوم إني ظالم ... سأصرف وجهي حيث تبغي المكارم
متى ينجح الغادي إليك بحاجة ... ونصفك محجوب ونصفك نائم؟[٢]

غيره:

يا أيها الملك النائي برؤيته ... وجوده لمراعي جوده كتب
ليس الحجاب بمُقْصٍ عنك لي أملا ... إن السماء ترجى حين تحتجب[٣]

---

(١) البيتان من بحر الطويل.
(٢) البيتان من بحر الطويل أيضاً.
(٣) البيتان من بحر البسيط.

الباب الخامس

في إرسال الرسل

ومن شهامة الملك أن لا يرسل رسولا إلى أحد البتة، فإن آفة الملك منهم يطلعون العدو على عورات المملكة ويتواطؤن معهم ويخدعونهم بالمال خصوصا إذا كانوا مشغوفين بالشراب، فيغرونهم بالأكل والشرب، والبطنة تذهب الفطنة فيطعمون منهم بنات صدورهم، فإذا أرسل رسولا لحاجة فلابد أن يكون عاقلا فطنا متيقظا، ولا يكون حديدا، ولا معجبا مكثارا، ولا خمريا فيغرونه في الحال، ويجب أن يكون الرسول بمعزل عن نية الملك – بنات صدره – فإن كان عالما بأنفاس الملك فرسالته خطر عظيم، ويوصيه أن لا يشرب الخمر؛ فإن الفرس كانوا يخدعون الرسل بالشراب.

الباب السادس

في تولية العمال

فإن أراد أن يولي أحدا عملا فلينظر هل هو أهل لذلك أم لا، فإن محمدة العامل ومذمته منسوبة إلى من ولاه، فإن طغى عامله وبغى فليعزله فإن فتنة ذلك تترشش إلى الملك، وإذا سخط وزيرا أو عاملا فلا يوله ثانيا، ولا يرشح أحدا لعملين فيقصر فيهما، فإن كان له وزير صالح فلا يزعجه فإن دولته بما تكون متعلقة به، فإن ألف نفر يعيشون في حماية دولة واحدة، وألف دولة تتعلق بدولة واحدة، ولا يولي أحدا يكون له مع القوم عداوة فيستأصلهم بالعداوة، ولا يجوز أن يكون ناشئا فيهم فتزدريه أعينهم بل يولي أحد رجلين: إما محمودا وإما مجهولا حتى يشتهر بتوليتك إياه أو حقيرا مستضعفا فيشتهر في عملك، وقد نهى الملك أن يولي كافرا أو يستكتبه أو يستوزره؛ فإن اللّه سبحانه نهى عن مخالطتهم وصحبتهم، فقال تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ﴾ [المائدة: ٥١] وأعني

بالكافر الذمي وأما الحربي فلا تجوز مكالمته. وقال النبي ﷺ: «أنا بريء مِنْ كل مَنْ صادق مع مشرك»، ولا يتزيا بأرأسهم يعني لا يستعان بهم في الأمور والمشاورة. وقال أمير المؤمنين عمر ﷺ: دلوني على رجل أستعمله إذا كان في القوم وليس أميرهم؛ فكأنه أميرهم، وإذا كان أميرهم؛ فكأنه رجل منهم. قالوا: هو الربيع بن زياد. وقال الحجاج: دلوني على رجل دائم العبوس طويل الجلوس سمين الأمانة أعجف الخيانة لا يحنق في الحق على حده، يهون عليه سؤال الأشراف في الشفاعة. وقال إياس بن معاوية لرجل: دلني على قوم من القراء، قال: القراء رجلان: رجل يعمل للآخرة ولا يعمل لك، ورجل يعمل للدنيا فما ظنك إذا وليته؟! لا يبقي ولا يذر، فعليك بأهل البيوتات الذين يستحيون لأحسابهم. تم الكتاب، والحمد للّه رب العالمين وصلى اللّه على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

obeikandl.com